الفصل الرابع

غد، ثم غد، وغه آخر بعده، ينزلق هكذا، حتى آخر مقطع يسجله الزمن، طى سفره. كل أمس لنا تمد أضاء البعض المجانين طريق الموت المنبر. انطفئي، أنطفي أيتها الشعلة القصيرة! فليست الحياة سوى شيخ هائم، ممثل مسكين يمشي فيها، أو ينوح على المسرح برهة عندما يأتي دوره.

حكاية يقصها فرابله، مليئة صخبا وثورة، ولا تعني شيئا.

- شكسبير. مكبث –

وأفضت متاعب بلداسار ولواعج نفسه، خلال مرض امرأة أخيه، إلى تفاق مرضه، وعرف من طبيبه إن حياته على الأرض لن تطول أكثر من شهر. وكانت الساعة العاشرة من الصباح، و الغيث يهطل بشدة عندما توقفت عربة أمام القصر، تقل الدوقة اوليفيان.

وكان إلفيكونت قد هيأ لنفسه مشاهد موته: "... في أمسية منيرة، وقد توارت الشمس، وأطل البحر خلال أشجار التفاح بلونه البنفسجي الباهت. غيوم وردية وزرقاء، خفيفة كتيجان ذابلة، مستقرة دائمة كالآسي، كانت تطفو على الأفق..."

كانت الساعة العاشرة من الصباح عندما جاءت الدوقة اوليفيان، وكان الغيث ينهمر من سماء قذرة واطية.

أما الفيكونت، وكان قد أتعبه المرض ومهما بنفسه إلى أهداف عليا بعيدة، ولم يعد يشعر بلذائذ الأشياء التي كانت تبدو له في السابق كثمن وفتنة ومجد رفيع للحياة، فقد طلب أن يقال للدوقة انه جد ضعيف. والحفت. ولكنه لم يرد مقابلتها. إنها لم تعد شيئا له قيمة بالنسبة إليه. فقد قطع الموت بسرعة هذه الصلات التي كان يخشى أسرها قبل أسابيع. وقد حاول التفكير فيها فلم ير شيئا يبدو لعيني عقلة. وكانت عينا خياله وغروره قد أغمضتا جفنيهما..

ومع ذلك، فقد استيقظت غيرته بشكل جنوني، قبل أسبوع من موته قبل حفلة راقصة تقيمها دوقة بوهيم وتقود فيها حلقات الرقص الأميرة بيا مع كاستريسيو الذي كان يزمع أن يغادر البلاد في اليوم التالي، إلى الدانمرك.

وطلب حضور بيا فعارضت امرأة أخيه بعض الشيء. وظنهم في البدء يقصدون منعه من رؤيتها، فثار غضبه، حتى أرسلوا في طلبها تواكي لا يزيدوا في ألمه.

وكان لدى حضورها هادئا مسترسلا في حزن عميق فقربها من مروه وحدثها للمال عن حفلة الدوقة :

– لسنا أقرباء يا بيا، فلن ترتدي على ثياب الحداد. ولكني التمس منك أمرا، عديني ألا تذهبي إلى هذه الحفلة:

وتطلع كل منها في عيني الآخر. وطفت على خدتني نواظرهما

روحاهما المعذبتان، والتي لم يستطع إن يجمع بينها الموت. وأدرك ترددها فتقلصت شفتاه بألم وقال لها ملاطفا: اواه لا، لا تعدي، ولا تخلفي بمهد تعطيه لمشرف على الموت، لا تعدي إن كنت غير واثقة.

– لا استطيع إن أعدك يا بلداسار. إني لم أره منذ شهرين ولن أراه بعدها أبدا. وسأظل بلا عزاء إلى الأبد إن لم احضر هذه الحفلة.

– انك محقة، طالما أنت تحبينه. ولكنك تستطيعين أن تفعلي من اجلي شيئا. امنحيني قسما من وقتك في هذه الحفلة، الوقت الذي كنت ستقضينه معي، فما لو كنت حاضرا، لتبعدي عنك نظرات الفضول. فادعي إليك روحي بعض اللحظات، وفكري بي.

– لا استطيع إن أمنحك هذا العهد يا بلداسار، فاني إذ ألازمه في هذه الحفلة، لا يكاد يكون لدي الوقت الكافي لرؤياه. ولكني سأمنحك فرصا أخرى في الأيام التالية:

– انك لا تستطيعين ذلك. ستنسيني سريعا بعد سنة يا للأسف! ولعل قراءة حزينة، بعد ذاك، وفاة احد المعارف، أو أمسية ممطرة تذكرك بي. وأي إحسان تهبينني بذلك! اواه لن استطيع رؤياك أبدا بعد إلا في الروح. ولذا يجب أن يفكر أحدنا بالآخر وسأديم التفكير بك حتى تكون روحي مكشوفة لك دوما، إن أردت دخولها. أما أن تأخرت الضيفة عن الحضور فستحلل أمطار تشرين الأزهار النابتة على قبري و تحرقها شمس آذار، وتبكي روحي جوي وألما. إني لآمل أن يبعث ذكراي في

خاطرك يوم عيد أو رؤية أثر لصديق. وعندها تزهر الأشياء من حولي مثل فعل السحر، حتى لأكني أسمعك و استمتع برؤياك. فكري بالميت يا بيا. ولكن لهفاه! أيستطيع الموت إن يقوم بما لم تستطعه الحياة بكل حرارتها ودموعنا، وكل أفراحنا وحرارة شفاهنا..